بحث في اصل النطق *

للاب يوسف جباره اليسوعي

ان الكلام لطبيعي للانسان. قال شمس المدارس: « لو كان ابن آدم حيوانًا يحنُّ من طبعهِ الى الخلوة والعزلة لكفتهُ اهواء نفسه التابعة في تصرُّفها نظام الاشياء لاطلاعه على كنه احوالها. لكنهُ لمَّا فُطِرَ حيوانًا انيسًا مؤالفًا لامثاله تحتَّم عليهِ اظهار افكاره للغير بوسيلة النطق. ولذا لزم وجود اصوات ذات معنى ليتيسَّر للانسان امر العيشة الاشتراكية (١)»

تُرى ماذا يُطلب بعد هذا لتأييد حكمنا كون الكلام طبيعيًّا للانسان ؟ يظهر لنا انهُ يكفي لذلك ان يكون للاصوات التي يلفظها الانسان مناسبةٌ طبيعية ثم معنى مضبوط محدود واخيرًا لا بُد من قوةٍ تحدّد للاصوات مجاري معانيها. والحال ان الكلام الملفوظ طبيعي لابن آدم حيث ان الله قد وهبهُ جهازًا للصوت يؤهلهُ لابراز اصوات ملفوظة بل غرس في نفسه ميلًا فطريًّا يهديهِ الى استعمال تلك الاعضاء كآلة لفضّ مختوم افكاره يجيزها الى مخاطبيهِ جاريًا في ذلك حسب مقتضى الحال

تلك قضيَّة قد همنا بعقدها بالادلَّة المتينة ووصلها بشهادات الباحثين السديدة وهو في علمنا القاصر ويقيننا الخامل امرٌ تمثَّل صوابه للعيون وتقرَّر حكمهُ في العقول على اننا لا نألو جهدًا في تفقُّد مذاهب الخصوم كي يصدعَ البحث ملتبس الشكّ فيكون البرهان مجلى للشبهة وموجبًا للحجة. واذ كانت ارض موضوعنا هذا متراخية الشقَّة متفاوتة السبيل والخطَّة فلا يسع جواد الفكر جوب فسحاتها في طرفة عين رأينا قبل الخوض في فَلَواتها ان نتريَّث قليلًا ونطلق رائد النظر على متسع

* قد استندنا في سرد هذه المقالة الى هؤلاء الكتبة الاربعة G. Sortais : *Psychologie*, p. 525-536 = Chr. Pesh, vol. 3. *Psych. : De origine linguæ.* = E. Rabier : *Psychlogie*, ch. XLIII. = Foncegrive, *Psychologie* : *Le langage.*

١) S' Thomas in I Periherm. l. 1. lect. 2

ارجائها ونختار لنا صراطاً امينًا ودليلًا حكيمًا يساعدنا على طيّ المراحل واحدة واحدة الى ان نقف على مواقع آثارها ونستثير خفيّ اخبارها فنبلغ المراد ونحمد جدًّا المستجاد . وعليهِ فنعرّف مباشرةً طليعة والنطق المتفرّع عن ارومتهِ ثمَّ نتطرق الى البحث عن اصل الكلام مستعرضين حلّة كل من الآراء المتداولة المعروفة مظهرين ما فيها من الرخيص والثمين الى ان تتجلى طاعة المذهب العقلي في مشرق البصائر الاغرّ . فنقول والله في التوفيق خير مسؤول

النطق(١ هو مجموع دلائل يكشف بها الانسان لغيره القناع عمَّا تحرّك بهِ ضميرهُ. لا غرو انهُ لا يكفي للانسان صوغ الافكار وابقاؤها في صدفة عقلهِ بل عليهِ اذا ما اراد البيان عنها ان يبرزها ويجلو مكنونها لمن شاطره كاس الحياة وانتظم واياهُ في سلك الهيئة الاجتماعيَّة

على انهُ لمَّا كان المرء لا يستطيع ابلاغ خفايا قلبهِ توًّا الى سامعهِ تراه يعمد الى حركات وافعال تقرع باب الحواسّ المجاورة لهُ فتطبع عليها طابعها وللحال تتأثر عوامل الحواسّ القابلة لنطقنا وتفصح عن احوالٍ شابه احوالنا صداها . فالدليل اذًا حادثٌ حسّيّ يثير في نفسنا فكرَ حادثٍ آخر غير محسوس . فان صراخ المتوجع مثلًا يدلُّنا على المٍ لا تدركهُ حواسنا . وبالاجمال الدليل هو كل شيء يصحبهُ فكر شيء آخر او كل شيء يقود الى معرفة غيره

موادّ الدليل ثلاث : ١ً حادثٌ حسيّ وُضع للدلالة . ٢ً حادثٌ غير محسوس مدلولٌ عليهِ . ٣ً علاقة بين الدالّ والمدلول عليهِ يُطلعنا بها الاول على حال الثاني

تلك هي موادّ النطق وهو في حيّز الامكان . ولكن لوجود دلالةٍ حاليَّة حاضرة لا بُد من عقلٍ يُدرك العلاقة الجامعة بين الدليل والمدلول عليهِ

امَّا علاقات الدليل والمدلول عليهِ فكثيرة الانواع واهمُّها :

١ً ما قام بين العلة والمعلول : كالبارود وانفجارهِ

٢ً ما بين الواسطة والغاية : كالابرة المغنطيسيَّة والإبحار

---

١) قد توسعنا في معنى النطق في هذه المقالة . فاستعملنا الكلام اي النطق الملفوظ مرادفًا لهُ في اغلب المواضع . والفرق الفاصل بينهما يدلُّ عليهِ عند الضرورة سياق الكلام . — كذلك للدليل معنيان متفاوتان اولهما مرادف للعلامة (signe) والثاني للبرهان . فتأمل

٣ً علاقات المشابهة : كالرسم والاصل المأخوذ عنهُ

٤ً علاقات تلاصُقٍ اعتيادي سواء كان ناجمًا عن الطبيعة او عن معاقدة أبرم الناس حبالها : كالخطّاف وورود الربيع او الكلام والفكر

واخيرًا علاقات المجانسة : كالقسطاس والعدل

كذلك للدليل اوجه شتى نقتصر منها على ذكر ما لهُ علاقة تصل الدليل بالمدلول عليهِ. فالدليل يدعى طبيعيًا اذا كان مرتبطاً بنوع فطريّ بالمدلول عليهِ. فان صاحب تلك الدلائل يبرزها من تلقاء نفسهِ واغلب الاحيان دون رضى تسبق اليهِ ارادته. فإنَّ قابل تلك الدلائل يجد لها معنًى في نفسه يشاكلها صفةً من غير ما اتفاقٍ معهود. ومثال ذلك: سمات الوجه المختلفة والاصوات والصراخات المتعدّدة المعبّرة طبعًا عن احوال الضمير. كذلك الدخان دليل على النار والاحمرار في الوجه على الخجل والحياء الخ

والدليل الاتفاقي هو ما ارتبط بالمدلول عليهِ على طريقةٍ حدَّدت رسومَها ارادةُ الناس وسنَّ لها شرائعها خاطر المتعارفين والمتكالمين. فباعث الدليل هذا يأتي بهِ بعد إعمال فكرةٍ وكدِّ ارادةٍ. والقابل لهُ لا يمكنهُ ان يتوصل الى صحة معناه وخفي مغزاه ما لم يسبق لهُ علمٌ يَسِمُ كل شيء بسمةٍ تعرّف نكرته. فالاعجمي الناظر لاوّل مرّة الى قدّة حمراء طُرز فيها هلال ابيض الوجه اغرّهُ وفي صدره نجمة حسناء ترصعهُ لا يدري ان ما يراهُ هو هو علَم الأمّة العثمانيّة المحروسة الى ان يخلو لهُ غامض هذه الحقيقة من عرف بامرها وبلغهُ سرُّها. والقسم الاعظم من النطق هو من هذا القبيل

فمن هنا يظهر لك ان الدليل الاوّل منبعهُ الطبيعة والثاني اتفاق الناس والنطق يتركب من كليهما فلا هو طبيعي محض ولا اتفاقي بحت. واذ كان النطق دليلًا بل ارفع الادلة شأوًا واجلّها منفعةً فهو يُقسم ايضًا الى قسمين: طبيعي واصطلاحي او اتفاقي

فمما اندرج تحت حكم الاصطلاح الخالص: لغة الكيمياء والجبر وحروفهما الدالّة على قوانينهما وكذلك طريقة تدوين العلامات الموسيقيّة. وما شابه ذلك كثير

والطبيعي هو ما تألف من علاماتٍ مصدرُها الفطرة واساسها الطبيعة وهو يُعرب

اعرابًا بيناً عن كل احساس ومعنًى دار في نفسنا مع عجزه عن ابداء طبيعة الفكر نفسهِ واخراجه في قالب جوهره المتزّه عن الهيولي

فالى مركز النطق والكلام تنتهي خطوط الدلائل الأُخر. فهو نقطة دائرتها وذلك لما لهُ من الالتحام القريب بالعقل الممتاز عن سائر القوى البشريَّة طبيعةً ورتبةً ولما يجد فيهِ الانسان من السهولة لابراز افكاره وشواعره. ناهيك عن مزايا أُخر نعدل عن وصفها في هذا المقام. وهنا حسبنا الاستشهاد بما قالهُ القديس اغسطينوس في شرف الكلام انهُ « اول الدلائل وملكها ». فالكتابة تخلّدهُ في الطروس. والالقاء يجعلهُ اعظم وقعاً في النفوس. والغناء يبسط موشَّى حسنهِ. والرموز والمظاهر والحفلات تؤوّلهُ على طرائق جمة لا يبلغها الاحصاء. وبخلاصة القول ان سائر الدلائل كالخدَم تعنو لامرته وتريدهُ رونقاً وكمالًا

وقبل الولوج في غابة البحث عن اصل النطق اتيت بهذه التعريفات تمهيدًا للموضوع وتقريباً لجانيه. وقد اتخذت لي قادةً في وضعهِ رجالًا برزوا في حلبة هذا الميدان وعُرفوا باصالة الراي وسداد البرهان. فمن نار قراهم اقتبستُ جذوةً وحملتها الى قرّاء المشرق علّها تهدي من سعى وراء هذه الضالة سواء السبيل

وما من احد يجهل ما لهذه المسألة من جليل القدر بل من المناهج الوعرة المطلع السريعة المنحدر الكثيرة المعاثر والمزالج والطافحة بالعقبات والمضايق. فلهذا صعَّد في فسحاتها الجمُّ الغفير وصوَّب واستنطقها حالها المتقدمون والمتأخرون فكانت لهم كلغز اجوبتهُ مغلقة ملتبسة يتنازعها الصواب والضلال شطرين ويتناوبها الجدّ والهزل ذات اليمين وذات الشمال

هذا واننا نرفّ للقرّاء الراي الاكثر شيوعاً والمرموق بعين القبول عموماً مستندين بذلك الى الدليل وهو اقوى حاكم وعارضين اقوال العلماء على محك الانتقاد وهو اتره قاضٍ

لا جرم ان من تداول هذه المسألة وقلّب صفحاتها تبدّت لهُ على وجهين الاول تاريخي وهو كيف نشأ النطق في واقع الحال. والثاني فلسفيّ محض اعني كيف امكن نشوّ النطق وابتداعهُ

فالجواب التاريخي لا يُعجَم عوده الّا بادلّة ايجابيَّة راهنة والذين انقادوا لفتواه

يسندون زعمهم الى آيةٍ جاءت في الكتاب الكريم في سفر التكوين حيث ورد انَّ « الرب الاله جبل من الارض جميع حيوانات البريّة وجميع طير السماء واتى بها آدم ليرى ماذا يسميها . فكل ما سماهُ بهِ آدم من نفسٍ حيَّةٍ فهو اسمهُ » (تك . ف ٢ . ع ١٩)

على ان المستدل من هذه الالفاظ هو ان آدم ليس الله تعالى خصص كلًّا من هذه الخلائق باسمهـا . وان الرجل الاوَّل كان قد رُزق ملكة الكلام . وهذا نفسهُ هو قطب بحثنا وفي اجتلاء نوره تراثا قد شدّدنا رحال الطلب وأنضينا ركاب الأمل

امَّا آباء الكنيسة ومعلموها فانَّهم في تقرير هذا الامر على قسمين قسمٌ منهم ارتأى بانَّ النطق اتى عن وحي الهي وان الانسان لا قدرة لهُ على استنباطه بمجرّد قواه الطبيعية . وقسمٌ آخر من الآباء والعلماء قد ناصبوا هذا المدَّعى وأيّدوا مقالهم بالبراهين الساطعة . وكفاهم شرفًا ان قد سار في مقدمتهم القديس اغسطينوس والقديسان غريغوريوس النيسيّ وباسيليوس العظيم والخطيب المصقع يوسويه واستنهج سبيلهم كثيرون من الكتبة المحدثين على اختلاف مشاربهم كما نوضح ذلك في وقته

هذا وان اقرّ بوجه عمومي الفلاسفة الكاثوليكيون بامكان الانسان وقدرتهِ على ابتداع النطق فانهم يسلّمون ان الله في واقع الحال قد انزل على آدم النُّطق او التكلُّم (١ . وكذلك العرب في الغالب يرجّحون الرأي بانَّ الكلام توقيف من الله ليس تواضع واصطلاح (٢

امَّا نحن فدأبنا التنقير عن الوجه الفلسفي دون سواهُ غير مستندين رأسًا الى اللاهوت والنقل بل الى المبادئ العقليَّة . فنقول ان البارئ تعالى اذ خوَّل آدم قوةً تسنَّت لهُ

---

١) اعلم انهُ لمن تعاليم اللاهوت الثابتة ان الانسان الاول قد خُلق متحليًا بحلَّة العقل التامّ رافلًا في ثوب النعمة والبرارة حائزًا على كل المنح اللازمة لهُ للنهوض باعباء مهمتهِ العظمى الجاعلة اياه ابًا للذرّية الانسانية وكذلك النقل يُعلمنا ان آدم قد خُلق في نضارة العقل ونال المقدرة على الكلام والتصرُّف بهِ فلم يعش حليف الحصر واللُّكْنةُ محتبس اللسان . وذلك امَّا لان الله عند خلقه اياهُ قد سكب في نفسه علم الكلام . وإمَّا لانهُ نالهُ بعد ظهورهِ قوةً تمكنهُ من إيجاد أكلام المعبّر عن فكره

٢) راجع المزهر للسيوطيّ

بواسطتها معرفة الاشياء وادراك خواصها اطاق لهُ العنان في انتقاء الكلمات ووضعها مواضع الاشياء. وبالنتيجة امكن اباثا الاوّل ان يتوخّى سبك نظام النطق من تلقاء نفسهِ تعاضدهُ الى ذلك قواهُ البشريّة لا غير

وايضاحاً لهذا المبحث وتبديداً لغياهب الابهام نحصر اوابد مطلبنا في القيد الآتي: هل استطاع الانسان ان يصل بنفسه الى اخراج كنز النطق من دفائنه دون عونٍ الهي او إلهام علويّ ؟ فنجيب: امكنهُ ذلك

فهلمَّ بنا اذن لحلّ هذا المشكل متخذين العقل مطيّة والبرهان نبراساً نقطع بهِ مهامه الاجيال ونتخطى حواجز المسافة والاعمار الى ان ينجلي لبصيرتنا محيّا الحقيقة وتُماط استار المغالطات والسفسطات

١

وكأني وانا اسطّر ما سبق قد طرقت أُذني اصوات مختلفة واعتراضات مشتبكة أثارها اقران هذا الميدان فترى كل فريقٍ منهم يحاول جذب الحقيقة اليهِ ما امكنهُ. واذ يممت متطفلاً حلقتهم وأملت لحظي مليًّا الى جماعتهم بان لي جحفلان متلاحمان علَت جلبتهما وبرقت اسنتهما يجوبان مضمار المنافسة ويخوضان غمار المقارعة والمعاكسة قصد افتتاح مملكة النطق والوقوف على اساسه الاصلي

فالفريق الاوّل نادى بعجز الانسان عن تنظيم احوال النطق وابتكار غرر اساليبه والثاني قِرنهُ اعترف لهُ بهذه المزيّة وقلّد فكرهُ بهذه القلادة السنيّة فاعطى القوس باريها والسهم راميهُ. فريقان اعتصم اوّلهما بحبل النقل فدُعي المذهب النقلي والثاني تمسك بزمام المبادئ العقليّة او الحيّة جهدهُ فوسموهُ بالمذهب العقلي الحسي. ألا ان الاخير ينشطر الى شطرين كلٌّ منهما بمناط الثريا من الآخر كما يبدو لك ذلك في موْتنف كلامنا

هيَّا بنا الى استيراء زند كل من هذه الآراء واستشفاف فرند صوارم فروعها فنضمّ الينا ما كان صافياً جوهرهُ ونطرح بمعزلٍ منَّا ما اتزل فيهِ الصدأ شرّهُ وضرّهُ

(ستأتي البقيّة)